



المعري الشاعر والفيلسوف

(بمناسبة مرور تسعمائة سنة على وفاته)

هو أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان التنوخي المعري اللغوي الشاعر الفيلسوف المعروف .

هو عربيُّ النسب من قبيلة تنوخ من بطون قضاة، من بيت علم وفضل وأدب .
وُلد في (المعرة) وهي بلدة بالشام بالقرب من حلب في السابع والعشرين من ربيع الأول سنة ٣٦٣ هجرية ، ولما توفى النعمان بن البشير الصحابي ودفن فيها أطلق عليها اسم (معرة النعمان) .

وما كاد أبو العلاء يبلغ الثالثة من عمره حتى أصيب بالجدرى على ما هو معروف فذهب ببصره وأعماه وهو لا يزال طفلاً صغيراً .

وكان نحيف البدن ، متوسط القامة ، واسع الجبهة ، في وجهه أثر الجدرى وقد ابيضت إحدى عينيه وغارت الثانية .

قرأ النحو واللغة العربية على أبيه وغيره من أئمة اللغة في ذلك العصر كمحمد بن عبدالله بن سعد النحوي وغيره من أصحاب الأفكار السليمة المنقفة . وكان شغلة من الذكاء الملتهب ، قوى الحافظة جداً ، حتى كان يحفظ كل ما يدور حوله تمام الحفظ من أول مرة . واليك مثلاً يريك كيف كان ذكاؤه وقوة ملاحظته : وهو ان تاجر ين اختصا على مقربة منه وكانا يتكلمان بغير العربية ولم يعرف هو غيرها . ثم اتفقا على حساب بينهما أثبتاه في سند حفظه صاحب الدين . ومضى على ذلك خمس وعشرون سنة مات فيها الدائن وافتقد الورثة السند فلم يجدوه وسنحت الفرصة للمدين فانكر كل ما كان بينه وبين صاحبه وانه ليس عليه شيء مطلقاً !

وكان أن سمع بذلك أبو العلاء فذهب تَوّاً الى حيث كان القضاء وألقى على مسامع

الحاضرين كل ما دار من القول بالحرف الواحد وباللهجة نفسها افدهش القضاة وغيرهم من الحاضرين واعترف المدين بكل شيء ولم يقدر على مواجهة أبي العلاء بكلمة واحدة فسبحان الله العظيم ! وما نظن أن هناك في بطون النوايح من رجال وهبوا مثل تلك الذكرة اللهم الا قليل جداً كالامام الشافعي رضي الله عنه وأبو جعفر المنصور .

وكان المرعي علامة عصره متضلعا من فنون الأدب أخذ عنه الناس وسار اليه الطلبة والعلماء من كل حذب وصوب ، وكاتبه القضاة والوزراء والحكام والأمراء حتى اشتهر في ذلك العصر بشيخ المعرفة .

قال الشعر وعمره أحد عشر عاماً ، وكان يحفظ كل ما يقوله حتى فاق شعراء زمانه فصاحة وبلاغة . ومن بليغ شعره ما حث فيه على طلب العلاء والبلوغ الى ذروة المجد والدعوة الى الفضائل ومكارم الأخلاق ، واليك بعض ما قاله :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعلٌ عفافٌ واقدامٌ وحزمٌ ونائلٌ

أعندى وقد مارستُ كل خفية بصدق واش أو يخبئ سائلٌ ١٢

ولما بلغ عنان الشهرة قال يمدح نفسه :

وقد سار ذكرى في البلاد فن لهم باخفاء شمس ضوءها متكاملٌ ١٣

وقد قامى الشدائد في حيانه من صروف الدهر وتقلبات الأيام بفقد بصره وموت أبويه وهو صغير ثم عنت المعاصرين وحسد المناظرين والمنافسين والصاقم به تهمة الاتحاد والخروج على الدين ، وقد قال في ذلك :

تعدّ ذنوبي عند قوم كثيرة ولا ذنب لي الا العلاء والفضائلُ

كأنني اذا طلّت الزمان وأهله رجعت وعندي للأنام طوائلُ

وقد سافر أبو العلاء من المعرة الى بغداد فاقام بها بضع سنين وهناك التقى بمن صادقه وصافاه وهو أبو القاسم علي بن الحسن التنوخي ثم ما لبث أن أعرض عنه وجافاه !

وعاد أخيراً الى المعرة ولزم داره فلم يبرح مسكنه وأطلق على نفسه (رهن

المحبسين) يقصد بذلك محبس العمى ومحبس الدار !

وكان يدين بأراء الفلاسفة في كثير من أمور حياته فلم يأكل اللحم ، وكان يذهب

الى محريم ذبح الحيوان وتعذيبه لفائدة الانسان ، كما يرى أن الوجود في هذه الحياة
تعب وشقاء ، وفي ذلك قال :

فيا موتُ زُرْ ! ان الحياة ذنيبة ويا نفسِ جِدِّي ! ان دهركَ هازلُ
وكان شدة الافتخار بنفسه . وهنا يقول :

ولما رأيتُ الجهلَ في الناس فاضياً تجاهلتُ حتى ظنُّ أني جاعلُ
فواجباً كم يدعى الفضل نافعاً ! ووا أسفاً كم يظهر النقص فاضلُ !
وكيف تنام الطير في وكناتها وقد نصبت للفرقدين الجبالُ !

وكان بعدئ المناسل جنائية لأنه أصل الشرور والآفات ، ولهذا عاش أعزب ولم
يتزوج في حياته قط ، كما كان يكره وجوده في الحياة . وقبل موته أوصى أن يكتب
على قبره :

هذا جناء أبي عليٍّ وما جنيت على أحدٍ

ومن نوادره انه كان يمشي ذات يوم في الطريق فقابلته غلام صغير فاستوقفه
وقال له : يا شيخ أولست القائل :

واني وإن كنت الأخير زمانه لآتٍ بما لم تستطع الأوائلُ ؟
أجاب : نعم ! هو أنا صاحبه . فقال الغلام :

لقد وضع الأولون حروف الهجاء تسعة وعشرين فهل تستطيع أنت أن
تزيدنا لحرفاً ... ١٩

فظهرت على وجهه علامات الإعجاب والنصف ولم يجبه .
وله مؤلفات منها :

(لزوم ما لا يلزم) و (سقط الزند) و (رسالة الففران) .

ثم عُني بعد ذلك بشرح دواوين بعض الشعراء ، فشرح ديوان أبي تمام وديوان
البحرئ وديوان المتنئ وكان يعجب بالأخير .

وقد توفي رحمه الله بالمررة في اليوم الثاني من ربيع الأول سنة ٤٤٩ هجرية بعد
مرض ثلاثة أيام ، وكان في السادسة والثمانين من عمره .

اصمروا لهبة زكريا

فرانسوى كوبيه

(بمناسبة مرور خمسة وعشرين عاماً على وفاته)

تحتفل فرنسا فى هذه الأيام بمرور خمسة وعشرين عاماً على وفاة الشاعر والقصصى العظيم فرانسوى كوبيه . وسوف تحتفل فرنسا على الدوام بذكرى كوبيه وغير كوبيه من شعرائها وكتابها الخالدين ، ففرنسا من أعظم الأمم تمجيداً لعظائنها لأن الشعب الفرنسى شعب فياض الشعور رقيق الاحساس ، وهو بذلك دقيق فى تحليله خدامه وبناء مجده خصوصاً من كان أقربهم الى طبيعته وأصدقهم تمثيلاً لروحه .

ولقد كان فرانسوى كوبيه باريسياً صميمًا جمل من المدينة العظيمة المصدر الدائم لفنه وأدبه : يحب أرجاءها المختلفة ويدور بناظره فى أحيائها يدرس بعين الفنان البارع مظاهر السعادة والشقاء والغنى والفاقة ، ويستمتع بطبيعة باريس الساحرة ومناظرها الجميلة . ثم يعود الى منزله الوضع وقد امتلأ قلبه الحساس بشتى المواطن المتضاربة فيسكبها فى شعره وقصصه بطريقة تسيل رقة وحناناً ... فكوبيه من هذه الناحية يمتاز عن كثير من الكتاب الفرنسيين الذين لم يفهموا باريس حق الفهم ، ولم يخصصوا أديهم لوصف مظاهر الحياة فيها من نعيم وشقاء كما فعل كوبيه . ولعل السبب فى ذلك هو أن معظم الكتاب الفرنسيين ليسوا باريسيين صميمين ككوبيه الذى وُلد ونشأ ومات فيها .

على أن هناك ناحية أخرى يمتاز بها كوبيه عن غيره من الشعراء والكتاب الفرنسيين وهو ما دعا النقاد لأن يلقبوه (شاعر المساكين) ، لأن كل كتابات كوبيه تفيض بالرحمة والرثاء للفقراء والبائسين . ولقد أحسن وصفه بول بورجيه وقت ما قال عنه حين وفاته : « انك لتشعر عند قراءة مقطوعة من شعره أوقصة من قصصه انه ليس - كغيره من الكتاب - كاتباً يكتب لقراء بل صديقاً يكتب لاصدقائه ، فدقة الاحساس وطيبة القلب والأمانة الصادقة فى الوصف سواء فى شعره أو نثره والاشمئزاز الطبيعى فيه لكل تكلف أو دجل أو ادعاء هى أظهر ما يميز فنه » .

حياته

وُلد كوبيه عام ١٨٤٢، وكان منذ صغره معتلاً بالصحة ذاوى اللون . وكان أبوه

موظفاً بسيطاً في وزارة الحربية وكان مرتبه الضئيل لا يسمح لأسرة كوبيه الا بحياة مقترية بأسة . ولما شب فرانسوى أرسله والده الى المدرسة فكان يذهب اليها في الصباح . ولا يعود منها الا عند المساء فيذاكر دروسه الى جانب والديه وشقيقاته الثلاث . وعند ما بلغ الرابعة عشرة انتقلت الأسرة من منزلها وانتقل كوبيه الى مدرسة سانت لويس المجاورة للمنزل . ولم يكن كوبيه موفقاً في حياته المدرسية - شأن كثير من التلاميذ الذين ينبشون بمستقبل عظيم - وكان دائم التفكير محباً للعزلة . وكانت حديقة لكسمبرج القريبة من منزله تفتن نفسه الشاعرة الحاملة وتلهيه بحمال مناظرها ومياهاها الجارية عن متابعة دروسه .

وجاءت الظروف القاسية ترى فساعدت على هجره المدرسة ، لأن والده الذي كان قد أحيل الى المعاش منذ عامين أصابه شلل أزمه الفراش مدة طويلة وأصبحت حالة الأسرة المالية من الضيق بما لا يسمح ببقاء كوبيه في المدرسة ، فأخرج منها واشتغل عند أحد المهندسين المعماريين . وكان يشتغل في الوقت نفسه نساخاً للمقاولين كي يزيد مقدار المال الذي يعين به أسرته . وكان يفتخر ساعات فراغه ويقضيها في القراءة المتواصلة حتى أصيبت عيناه بمرض من جراء ذلك . ولم ينقض وقت طويل حتى عُين كوبيه موظفاً في وزارة الحربية التي كان والده موظفاً فيها ، وظل يكدر في سبيل أجره ضئيل نافع . وعند ما بلغ كوبيه العشرين مات والده فزادت اعباؤه وشعر بالمسؤولية تثقل كنفه فكان يتميز بالقراءة المستمرة وكتابة الشعر والقصص القصيرة والمسرحية . وابتدأ بنشر بعض قصصه القصيرة في إحدى المجلات الصغرى ، ولكنها لم تكن لها من الناحية الأدبية قيمة تذكر .

شعره وقصصه

وفي ذلك الوقت كانت قد ظهرت في فرنسا جماعة البرناسيين فانضم كوبيه اليها وأصبح دائم الاجتماع بأعضائها وكانت الجماعة تجتمع يومياً عند الناشر ألفونس لومتر وكانت هذه الصداقة بين الناشر وجماعة البرناسيين مما ساعد على نشر مؤلفاتهم عنده فنشر كوبيه عام ١٨٦٦ مجموعته الشعرية الاولى (Le Reliquaire) وبعد عام شر مجموعته الثانية « الاخوان » (Les Intimites) وحتى ذلك الوقت لم تتعد شهرة كوبيه دائرة محدودة حتى كان يناير عام ١٨٦٩ اذ أخرجت الممثلة سارة برنار قصته « المار » Le Passant على مسرح الاديبون فأحرزت نجاحاً كبيراً وارتفع كوبيه مرة واحدة الى مصاف الكتاب النابغين وأصبح اسمه موضوع أحاديث الاندية الأدبية

في فرنسا وغيرها من البلاد الأوروبية، وأعجب به نابليون الثالث امبراطور فرنسا وعرض عليه مرتباً شهرياً ولكن كوبيه رفضه مع حاجته القصوى، على أن حالة كوبيه المالية تحسنت قليلاً بعد ذلك عندما وُظف في مكتبة مجلس الشيوخ.

وفي عام ١٨٧٢ كتب كوبيه قصة «حب في أثناء الحصار» وهي أول ما كتب نثراً وكتب أيضاً مجموعة قصصه القصيرة الأولى ثم ظهرت في ذلك العام قصة «المساكين» التي بلغ فيها ذروة مجده الأدبي من الناحية الإنسانية، ثم كتب بمعاونة ارمان دارتوا قصة «حرب المائة عام» وهي مسرحية شعرية أظهر فيها نواحي من البطولة الفرنسية.

وكان اسم كوبيه في ذلك الوقت يدوي في كل مكان، ففي عام ١٨٧٩ منحه وسام اللجيون دونور.

وفي عام ١٨٨٣ كتب كوبيه قصة «سيفير وتوريل» فنجحت نجاحاً كبيراً، وفي العام التالي انتخب عضواً في الأكاديمية فرانسيي، وفي عام ١٨٨٥ استقال كوبيه من عمله في مكتبة مجلس الشيوخ على أثر خلاف قام بينه وبين رؤسائه الذين رأوا في بعض أعماله الأدبية من الآراء ما لا يتفق مع عمله الحكومي فسافر إلى أملاك صديقه وناشر كتبه ألفونس لومنز حيث تمتع بالراحة والهدوء وكتب هناك قصة «اليعقوبيين» التي مثلت على مسرح الأدب في شهر نوفمبر من العام نفسه.

وواصل كوبيه إنتاجه الأدبي دون انقطاع فكتب عدداً كبيراً من القصص القصيرة شعراً ونثراً. وفي عام ١٨٩٥ كتب كوبيه قصته المسرحية «في سبيل التاج» وفي عام ١٨٩٦ كتب قصة «الجانى» وهي القصة الطويلة الوحيدة التي كتبها.

وكان كوبيه قبل كتابته هذه القصة يعاني ألم المرض المبرح ولم ينجحه منه إلا عملية جراحية خطيرة، وجعل كوبيه من آلامه في أثناء مرضه موضوعاً حياً لأحدى قصصه كمادته في تصوير فواجع حياته فكتب قصة «العذاب العذب».

وقضى كوبيه أعوامه الأخيرة يعاني آلام المرض معتزلاً في منزله الحقيق مهد ذكريات حياته الأولى، وقد أبى أن يفارقه مع الحاح أصدقائه إلى أن مات فيه عام ١٩٠٨ م.

كان كوبيه شاعراً أكثر منه ناثراً، بل إن عبقريته الشعرية - كما يقول بورجييه - كانت على حساب نبوغه كنائري، على أن كوبيه كان واقعياً حتى في شعره، ولذلك كان شعره مع الموسيقى العالية التي تغمره يقرب كثيراً من النثر، لأن كوبيه لم يكن يريد

الخروج عن دائرة الحقيقة فكان يصوّر الأشخاص على ما كانوا عليه بلا تنميق ولا تزويق . وكيف يستطيع ذلك وهو في الواقع لم يكن يكتب الا صدى شعوره الشخصى ولم تكن الاشخاص التى يصورها فى شعره أو نثره الا شخصيات اتصل بها عن قرب أو عن بعد ، ففهمها حقّ الفهم وعرف ما يخالجها من مختلف العواطف والنزعات المتضاربة ؟

ان الاتجاه الجديد الذى أوجده كوبيه فى الأدب الفرنسى عامة والشعر خاصة يبدو واضحاً فى المجموعتين الأولى والثانية من شعره : فلقد بدا فى هاتين المجموعتين شاعراً مطبوعاً يريد أن ينزل بالشعر الى رسم سواد الشعب من الطبقتين الوسطى والفقيرة . وكان يرى ان الطبقات البائسة بفقرها أو بما يعترها من أحوال الحياة القاسية أحقّ من غيرها باهتمام الكاتب والقارىء على السواء . ولذلك كانت قطعه الشعرية فى هاتين المجموعتين صورة صادقة بريئة لحياة هذه الطبقات . فهو لا يصور (الفقراء) فحسب بل (المساكين) عامة بما فيهم الفقراء ، لأن الذين يتألمون فى الحياة ليسوا فقراء وحدهم — وإن كان ألم الفقر والجوع هو شر الآلام — بل هناك من الناس من قد يكونون سعداء من الناحية المادية ولكن الدنيا لا تقدم من الوسائل ما تنفع بها عليهم حيائهم ، وأمثال هؤلاء كثيرون مثل المرضى والخائبين فى الحب والذين فقدوا آمالهم العظيمة فى الحياة . وكذلك الأطفال الصغار فهؤلاء أيضاً بمألوّن جانباً من أدب كوبيه — أولئك جميعاً هم من خصص كوبيه شعره ووقته لشرح آلامهم ونرى ذلك واضحاً فى قصيدة « الجدّات » وفى « قديسة » التى أهداها الى أمه . وفى قصيدة Le Banc وهى قصة حب عنيف بين جنّدى وخادمة نرى فيها كوبيه يبلغ الذروة من حيث دقة الوصف وصدق العاطفة ونبيل القلب ، حتى ان فكتور هوجو أرسل اليه كتاباً قال فيه : « بفضلك أصبح الانسان لا يسخر من الجنّدى ولا من الخادمة » .

كان كوبيه يعشق باريس عشقاً جنونياً ويحج السعادة كلها فى الجلوس على شاطئ السين أو التجوال فى أحياء باريس ويسمع بأذنيه صرخات الألم والبلاء المنبعثة من بين جدران البيوت القذرة التى تكون عالماً آخر لا يتصل بباريس العابثة الماجنة بصلّة . ولقد أبدع كوبيه فى رسم هذه الصورة أيما ابداع فى مجموعة الصور العشر

وفي قصيدة أوليفيه Olivier تراه يصف باريس في يوم أحد من أيام أيار الشتاء وقد نجمت الناس وخصوصاً الفقراء في حديقة لكسمبرج يلتمسون من جمالها وسحرها ما يخفف عن قلوبهم الكسيرة عبثها الثقيل .

وأوليفيه بطل القصيدة شاعر وزَّع قلبه على كثير من النساء، وكان يشتري الحب بالمال إن أعوزته الأمر ، ولكنه في النهاية شعر بالملل من تلك الحياة التي خسر فيها أكثر مما كسب ، فازرع الذهاب الى مسقط رأسه ليعيد عن جو باريس الصاحب وينزل على أحد أصدقاء والده ، وهناك يتعرف بابنة مضيقة وهي فتاة جميلة عفيفة تدعى سوزان . فتعجبه الفتاة ويبتدئ بحسن نحوها بعاطفة خفية ، ولكنه لا يلبث يشعر بأن قلبه أصبح أبعد ما يكون عن أن يتأثر بالحب العفيف الطاهر وبأن الماضي الأثيم والحب الذي يشتري بالمال قد طبعاً قلبه بطابع لا يمحي ، وإن كل ما يشعر به نحو هذه الفتاة هو أنها تذكره بهيئتها وحركاتها بالفتاة الساقطة التي كانت تعيش معه تحت سقف باريس . وعند ما يشعر الشاعر أوليفيه بأن غسل الماضي فوق طاقته يتعزَّى بكتابة مقطوعات شعرية آية في الروعة ينفس فيها عن آلامه ، ثم يرحل ثانية الى باريس حزين القلب منكسر الفؤاد .

وهذه القطعة الرائعة صورة صادقة لكوبيه نفسه وهي بواقعية فكرتها وصراحة رسمها تجعلها أقرب الى (آلام فرتر) للشاعر الألماني جوته أو الى اعترافات روسو . وكوبيه بشعره الماطفي يسمو الى مصاف أعظم شعراء العاطفة القرنين الا أن بينه وبينهم خلافاً ظاهراً : فهو ليس كموسيه مثلاً الذي أمعن في وصف الحب الشهواني الذي يعتمد صاحبه على المسكر والخديعة من أجل تحقيق أغراضه ، ولا كلامارتين الذي بالغ في تصوير الحب الطاهر حتى خرج تصويره له أقرب الى الخيال منه الى الحقيقة . لقد كان كل من موسيه ولامارتين مبالغاً في تصوير ما أراد ، أما كوبيه فقد كان وسطاً بين الاثنين : كان واقعياً صحيحاً . كان شعره رسماً لتلك الصور اليومية التي يصادفها الشاعر في حياته ، وتلك العواطف التي تجيش في أعماق نفسه . ولذلك كان شعره أبعد ما يكون عن التكلف ومحولة خلق موضوعات لا تتفق مع الحياة الواقعية . وهو بذلك كثير الشبه بالشاعر الألماني هنري هيني الذي يتفق معه أيضاً في تصويره للألام . فالاثنان تغلب عليهما ما يسمى (أنانية الفنان) : يأتي أن يشكو ما يعانيه الا بالقدر الذي يجلب عليه العطف فلا يتذلل ولا يحاول أن

يظهر أن الآلام على مرارتها قد نالت من ارادته أو عزة نفسه . وترى كوبيه يقلد هنرى هينى فى ذلك ويكتب مجموعة أغانيه المسماة L'Exilée ومجموعة صغيرة أخرى بعنوان Les Mois

ولا يبنى مجد كوبيه على شعره العاطفى، شعر الحب خصب، بل ان نبوغه ككاتب قصصى ومسرحى قد مهد له السبيل لخوض غمار الشعر الحماسى والدعوة إلى مثل عُلّيا فى الحياة . وهو فى هذا الضرب من الشعر نراه أقرب الشعراء إلى فكتور هوجو وفيكونت دوليل . وانك لا تلبث أن تشعر بوطنيته الملتبهة ودعوته الى أسمى الفضائل كلما قرأت له « القبران » التى يزعم فيها أن المجد الحقيقى لا يأتى الا عن طريق الفضيلة والشرف أو فى « سبيل الناج » التى يمجّد فيها سيادة الأمة أو « اضراب الحدادين » التى يعيب فيها النورات وينقد نتائجها السيئة .

ولعل من العجيب أن يبدو فرانسوى كوبيه من خلال شعره الاجتماعى والسياسى كارهاً للديموقراطية ناقداً لنظامها ، مع أنه وقف شعره ووقته القصصى والمسرحى على الدفاع عن الفقراء والبائسين ، ولكن كوبيه كان يعتقد مثل بلزاك — الذى كان كوبيه متأثراً به فى كثير من آرائه وأعماله الأدبية — انه لا بدّ من نظم ضيقة لكبح تلك الطبقة الفقيرة التى خرج هو نفسه منها . كان يمجّد القوة ويمتدّ بصلاحيّتها . ألا نراه فى « اضراب الحدادين » ينتقد الالتجاء الى النورات لتحقيق المطالب ؟ ألا نراه فى قصة « فى سبيل الناج » يمجّد سيادة الأمة وإن كان فى ذلك تضحية للأفراد ولمصالحهم؟ وكذا فى سائر أعمال كوبيه سواء كان فى شعره أو فى قصصه المسرحية أو قصصه الطويلة أو القصيرة نراه يدعو من خلالها الى القوة والسلطان وينتقد نظام سيادة الجماهير .

لقد كان كوبيه بشعره فائحاً جديداً فى الأدب الفرنسى فالموضوعات التى طرقها والشخصيات التى رسمها — تلك الموضوعات والشخصيات التى ولدتها الإنسانية حزينة — لم تكن معروفة عند الشعراء الفرنسيين الذين سبقوه .

فنه المسرحى

كانت أولى مسرحيات كوبيه قصة (المار) Le Passant وهى صرخة شباب

كوبيه : ذلك الشباب البائس المحتاج الممتلئ بالآمال الضائعة والرغبات المخنوقة .
ولقد نما كوبيه في هذه القصة منحي الفن القصصي التصويري الذاتي *fantaisie*
الذي ابتدعه شكسبير في « كما تريد *As You Like It* » وتأثر به موسيه في « فيم نعلم
البنات *Aquou rêvent les jeunes filles* » وفي قصص « سفرو توريلي »
و« اليعقوبيين » و« في سبيل التاج » ترى كوبيه يجمع بين المذهب الرومانتيكي
والمذهب الكلاسيكي وينزع فيها منزع القدماء وأخصهم كورنيل في أن يكون للقصة
مثل أخلاقي أعلا ليجعل منها دراما أخلاقية . وهذه القصص الثلاث دعوة حارة الى
تضحية كل شيء حتى العاطفة الأبوية من أجل المبادئ السامية كالحرية ومجد الوطن .
ومسرح كوبيه — كشعره — صورة كاملة لحياته الشخصية . وفي قصة
Le Pater ترى شقيقة أحد القسوس الذي جرح في أثناء الثورة الشيوعية التي
قامت في باريس بعد الحرب السبعينية ، تراها تنفذ الشخص الذي أمر بإطلاق النار
على النازيين وهي تنطق بهذه العبارة : « اغفروا لنا زلنا كما نغفر نحن للذين
أخطأوا إلينا » . ولقد كانت هذه الكلمات نفسها هي آخر ما نطق به كوبيه
قبل موته !

كوبيه النائر

قلنا إن كوبيه كان شاعراً أكثر منه نائراً ، على أن نثره مع عبقرية الشعرية ولغائها
على فنه كان يمتاز على نثر غيره من الكتاب النائرين برفقته وحرارته وبذلك المسرة
المريرة التي هي أولى خصائص أدب كوبيه . فقصته النثرية الأولى « حب في أثناء
الحصار » مع نواحي السرور والفرح التي تغمر بطليها العاشق بن جابريل وأوجيني في
مطلع القصة فانها تنتهي بصور من البغضاء والحقد يضيع في غمرها أثر السعادة
الماضية . وفي « المساكين » ترى كوبيه يبلغ الذروة في دقة الشعور وهو القلب والدقة
الصادقة في تصوير ضواحي باريس وقتياتها الساذجات .

وقصص كوبيه يكثر فيها شعاع من السخرية ، ولكنها مسخرة بريئة فيها معنى
المطف فهو يصف الأطفال كما يصف البسطاء من الرجال والنساء الذين يقعون في
شباك الخبثاء الماكرين . يصفهم بطريقة ساخرة فيرسم جودتهم وبساطتهم بطريقة
تثير الضحك والألم في وقت واحد ، ولكنها في النهاية تستند العطف عليهم والثناء لهم .
والرذائل ... الرذائل والنقائص الأخلاقية لها من قصص كوبيه نصيب وافر . وقد

سهلت له حياته الباريسية فهم باريس فأجاد رُحمتها براعة القصصى والشاعر الفنان ، وكانت الطبقات البائسة المتألمة هي الغالبة في جميع قصصه . وفي قصته « الاغنياء الحقيقيون » Vrais Riches ترى لو نأمن الصوفية يشع من ادب كوبيه في هذه القصة تراه يؤمن بالمثل القائل : (المال لا يجلب السعادة) فالأغنياء الحقيقيون في نظره هم أولئك الذين يحتفظون في أجسامهم بالكثير الذي لا يفنى ، ألا وهو القلب .

وقصة « الجاني » Le Coupable وهي القصة الطويلة الوحيدة التي كتبها نعتبر من أروع أعماله ، وهي قصة أب هجر ابنه وهو ثمة علاقة بينه وبين فتاة عاملة حين كان طالباً فيندفع الولد الشريف الى الرذيلة ويصل به الأمر الى ارتكاب الجرائم . ثم ينتهي به الحال الى الوقوف أمام المحكمة التي يكون أبوه قاضياً فيها ، فيعترف الأب علناً بأنه هو الذي جنى على ولده . والقصة كتبت بأسلوب داعم وبطريقة لا يملك القارئ لها نفسه من البكاء والثورة على تلك المآسى التي تحدث في كل زمان ومكان .

لقد كان فرانسوى كوبيه فاتح الطريق لأدب جديد : أدب الرحمة الواسعة والعطف الصادق على كل متألم بائس في الحياة ، ولقد صدق أنطوان فرانس حين قال عنه : « اذا كانت الثقافة المتوسطة تكفى لقهمه فانه لا بد لتذوقه تماماً من ذهن صادق نقي » .

على أمل

~~~~~



## عادة المحيط

( موسيقى أنفحق في حبّه ونبا به دهره يسير على شاطئ المحيط ، ثم يجلس على صخرة مشرفة على أمواجه التي تشبه الجبال ويمسك عوده ويفنى )

كوكب قد لاح ينشد الاصبح

ونسيم هب مثل عطره فاح